ضوء رمادي

قصة بقلم مطاع صفدي

يحلو لي ان اتأمل عقارب ساعتي الجديدة . صارت لي هواية حقيقية هي ان اتابع حركة هذا العقرب الطويل النحيل ، عقرب الدقائق ، وهو ينزلق حول دائرة الزمان بسرعة رتيبة. يدور ليعود الى نقاطه الاولى، دون ان يدري لماذا يدور ، ولماذا هو مضطر ان يعيد الدوران الاف المرات ، ان ينزلق بذات السرعة حول دائرة هي الاخرى لا تعي انها دائرة الزمان .

انا التف كذلك حول الاحياء الغافية . وراح رأسي يسبح بالضوء الرمادي من فجر واجف وليد. ولقد استطعت ان اتبين حركة عقرب الدقائق خلال الضوء الرمادي . ضوء بلا نور حقيقي ، بلا لون حقيقي. وكان الضوء ما زال عاليا ، يحلق فوق سطوح المنازل ، دون ان يهبط الى سراديب الشوارع .

كانت المدينة ميتة ، وفي اعماقي تجمعت رهبة الضوء الرمادي كلها ، فاحسست لها برودة حادة . وكان ظلي يشفى تدريجيا على الارض الرصاصية الكامدة ، ويفقد بقعته السوداء كلما اتضح الفجر في سقف المدينة .

قال صديقي : « انك تفقد هذه الليلة بسرعة » .

قلت :

ـ اجل ... ان الضوء الرمادي ينسحب الى عيني . سأطبق جفني عليه . سامتصه . سيتحول الى مادة غريبة تسبح مع دمائي .

ـ الضوء الرمادي ضوء نادر قلما ينتبه احد اليه ، انه ينتشر خلال فترة وجيزة جدا بين ظلام الليل وضوء الشمس .. وانت وحدك اكتشفته!

فاجبت :

ـ ولهذا تراني اسهر دائما حتى الصباح . انني اترقب ظهوره في مثل هذه اللحظات ..

قال صديقي متلعثما :

ـ ظننت انك .. انك تبحث عن اشياء اخرى ، اكثر اهمية . ترى .. الم يكن لها هي الاخرى عيون رمادية .. الم تكتشف الضوء الرمادي في عينيها اذن .. قبل ان يكون في هذا الصدع الكئيب بين ظلمة الليل وشروق الشمس ..

قلت :

ـ هذا صحيح .. ولكن هي لها ضوء رمادي ، وليس عينان رماديتان..

ـ ما الفرق .. انت مجنون !

ـ سأودعك الان، يجب ان اختبيء في غرفتي ، لا احب ان تسطع الشمس فوق رأسي .. ستسرق عندئذ الضوء الرمادي من عيني !

ـ لا تذهب ... لن تحتمل وحدتك ... خاصة هذه الليلة .. اتسمع لقد فقدتها ، فقدتها . تعال نتابع السير جانب النهر .

ـ كلا !.. يجب ان ارجع الى غرفتي ، وداعا !

ـ قلت لك لن تحتمل وحدتك ، لن تحتمل ايها الاحمق !.. انت تفر ... تفر !

وامحي ظلي ورائي ..

***

كان ابي يشتم رائحة الشر من شقوق النافذة . لم يعد يبارح كرسيه المتخلع ذاك . ينتفس دخان نرجيلته ، ويتصبب جبينه المجدور عرقا صيفيا مبكرا .

كانت لوحات اخي جامدة كعادتها معلقة على الجدران الصفراء في الغرفة الا ان طبقة من الغبار احالت جميع الوانها الى كمود ابكم . وانا ملقى على فراشي الارضي. انني اقرأ قصيدة قديمة لي، واحيانا يعلو صوتي بها دون ان ادري .

ويتدفق لسان ابي مع قرقرة نرجيلته بين فترات السكون :

ـ حاول ن تجد ذلك الصوت .. حاول يا فالح !..

ـ ابي .. دعك منه ... لقد انطفأ !..

ان ابي لا يستمع الى الفاظي ، كانني لا اتكلم ابدا . وهو يأبى حقا ان يصدق ان (ذلك الصوت) قد مات .

وتدلف اختي ، كظل شمس من الخريف، انها تجلس على اريكة قبالتي. تتأملني عيونها السود ، أرنو الى لوحات اخي الكامدة . اسبح في صفرة الحائط . أغوص في فراشي . تطفو على شفاهي قصيدتي القديمة ثانية . تقول اختي من خلال جمودها :

ـ لم يأت اخوك ..!

ـ كلا ... لن يأتي ، لن يأتي ابدا !

ثم يتفجر فم ابي صائحا :

ـ ابحث عن الصوت ثانية ، قلت لك ابحث !..

ويتطلع الى الشارع .

لقد تحولت عبارة ابي هذه الى ما يشبه الايقاع . انها تحذرني . وكذلك تحذرني قصيدتي الزاحفة على اطراف فمي .

وتسأل اختي :

ـ الا تعتقد انهم سيعثرون عليك .. الى متى تجلس هكذا ؟

ـ لا اريد ان ارجع الى هناك .

وقامت اختي . ستفعل شيئا ما . انها تبحث في درج . امسكت بالقماشة المخملية . راحت تمسح الغبار عن لوحات اخي . وتقهقرت نظرتي عن قامتها ، عن خصرها المدور ..

سبح الضوء الرمادي ثانية بين اجفاني.

ومسح ابي العرق عن وجهه المجدور ، وقال حنقه :

ـ بكر حر بغداد اللعين هذه السنة .. كل المصائب تقع مجتمعة هذه السنة !..

وسمعت فمي يتلفظ عبارته الاولى :

ـ لن ارجع الى هناك .. لن تراني دمشق ثانية !

لقد وعدته الا نخطيء ، ذلك المدرس ، عندما كان يجمعنا في بيته ، نحن شباب العراق الفارين ، ايام حكم السعيد . الا نخطيء فيما اذا عدنا

الى العراق . كنا نعلم ان الثورة لا بد ستقع . وكان المدرس اشدنا يقينا بذلك ، فيقول بعد زخم من النظرات الفكرية :

ـ « نحن نعيش عصر الثورة بالنسبة لامتنا .. ثورتها هي قدرها، ولكن ينبغي امر واحد جد خطير ، هو ان يرتفع جيلنا الى هذا الشرط الثوري ، بدون ذلك يخون الجيل التاريخ.. ثم لا يكفي اننا ثوريون شئنا ام ابينا ، بل ينبغي ان نؤمن بمعاني هذه الثورة ، ينبغي ان نعيها لنشق منها اكبر طاقاتها . ان الثوريين هنا بدمشق ، ثم في الاردن ، تعرضوا للخطأ واحيانا للانحراف لان هذا الوعي للشرط الثوري لم يكن حقيقيا . لقد وقع الخلط بين اماني الفرد واماني الامة ، وانقلب احيانا منطق الثورة الى منطق المنفعة ..

ستعودون الى العراق ، حاولوا ان تفيدوا من تجربتنا هنا وفي الاردن ... حاولوا ان تكونوا الثوريين .. الثوريين دائما امام اكبر مغريات الواقع الفاسد .. هذا هو ضمانكم الوحيد ، ليس ضد اعدائكم فحسب ، بل ضد انفسكم .. »

ورايت نفسي اصرخ بابي :

ـ نحن طيبون يا ابي .. طيبون اكثر من الطيبة .. نحن سذج .. يا ابي !..

وتنظر الي اختي بدهشة مريبة ... وتقول بحقد انثوي صاعق :

ـ كان الافضل ان تكونوا الشيطان المنتصر من ان تكونوا الاله المنكسر!.

اواه ! ان اختي تذكرني بذات العيون الرمادية في دمشق . لقد كانت سعاد تطمح للانتصار العظيم الساحق . كانت تقول لي ونحن نتجول قرب النهر :

ـ اشعر يا فالح .. اشعر ان هذه القوى الكبيره المتحرفه داخل نفوسنا لن تذهب هباء ، ستحقق ولا بد اعظم آمالنا ، سنرى باعيننا ، وقبل ان نموت ، عملاق الحرية يصنع الوحدة .. يتمطى في طول الوطن وعرضه ، يحطم قوقعته .. هذا هو جيل المعجزات ...

فاجيبها وانا اسبح في الضوء الرمادي ، المنعكس على موجات النهر الصغير .. من عينيها الكبيرتين :

ـ هل تقتلين الياس في نفسي يا سعاد ، الا تعلمين انني في حاجة الى هذا الياس ، انا اقتات منه ، انه خبز روحي . انا في مدينتكم منذ سنة اشارك الشباب في احاديث المقاهي والحلقات والخطب القومية . لقد عرفوا طريقهم ، اخذوا يحققونه فعلا .واما نحن .. هناك ، فما زلنا طاقة كامنة كبرى .. طاقة تخيفني ، ستجرف نفسها وابطالها .. ستحول ضد ذاتها ان لم نستطع قيادها وتوجيهها في الوقت المناسب ....

تمسك سعاد بذراعي وتوقفني . تتقابل عيوننا بحدة وتصالب :

ـ فالح! سيكون العراق قريبا لكم.. فاعرفوا كيف توصلون هذه الامانة الكبرى الى الامة ...

الطريق جوار النهر جميل مظلل بالاشجار الكثيفة . وانا احس الغربة. تجعل حياتي بطيئة كمياه النهر الصغير .. ليس لي من العمر الا ثمانية عشرة عاما . ما عرفت فيه منذ ان وعيت وجودي الا عاطفتين: عبادة الامة كما هي في نفسي ، وكفر بواقعها الاسود كما هو في نفسي كذلك .. وبالتالي تحدد سلوكي ضمن هذين القطبين .

ما استطعت ان اكون عضوا طيبا في عائلتي. خيبت آمال والدي. كان يدفع بي نحو النضوج كيما اساعده على جني خبز العائلة.ولكنه وجدني ذات يوم بعيدا عن خطته .. لقد احترفت قيادة المظاهرات في النهار وتوزيع المناشير في الليل ، والالتجاء الى الغرف المظلمة اتناقش هناك مع زملائي ، ونحتد ، ونتصادم ، ونتهم بعضنا بالجبن احيانا ، بعدم الصدق او الفهم احيانا اخرى . ونعد هكذا ليوم آخر ، للعمل جماهيري اخر. حتى شعرت انني ملاحق ، فاضطررت الى الالتجاء الى دمشق . وكانت فرحتي عظيمة رائعة انني ساعيش في عاصمة الثورية العربية. وتعرفت هناك الى مئات الشباب .. لم يكونوا فرحين مثلي، ثم تبينت انهم هم كذلك لهم فلفهم ، لهم تمزقهم ، لهم تناقضهم الوحشي الذاتي . كانوا يخوضون معركة مبهمة ملتبسة . لم تكن لديهم ساحة مكشوفة وحدود واضحة بين خطهم وخط اعدائهم ، كما لنا نحن في العراق حينئذ ايام السعيد . وتعرفت الى الاستاذ وحيد . وكان اشد الشباب تحرقا وتيها . يخشى على تاريخ النضال من ان تطيح به اهواء الافراد ... وفي لحظة من لحظات غضبة قال لي متهدج الصوت والروح :

ـ يا فالح ... لقد استفتوا عن القاعدة ، كفوا عن توجيهها عقائديا ، تركوها تكل التيارات الاخرى .. ان القاعدة تنفتت ... نعم لقد اصبحت الامة اليوم هي القاعدة ، ولكن تنظيمها ليس بالعمل السهل . هناك فئة واحدة فقط تجني اكبر الفوائد ..

وقلت : من هم .. اتعني الرجعيين !..

ـ كلا يا فالح .. هؤلاء حكموا على انفسهم بالفناء ، انهم في طريق الزوال .. الفئة الاخرى التي تدعي النضال والعقيدة ، هذه هي التي تهيء اليوم لاكبر عملية تهجين في تاريخنا الحديث .. الشيوعيون يا صديقي .. هم قلة ، ولكنهم منظمون ، افرادهم مستعبدون تماما من قبل قيادتهم ، تدرسون الخطط للاستيلاء على مرافق الامة !..

وتساءلت تائبة :

ـ ولكن يا استاذ ماذا نفعل نحن ؟.

ـ نفعل ؟ اننا ننفرج .. الخطأ يا فالح ما زال في بدايته ، الخطأ ليس في العمل ، انه انحراف في العقيدة .. عقيدة الثورية العربية تقول كل قطر عربي يكافح اولا في سبيل تحرره من الاجنبي ، ثم ينبغي ان يتبع التحرر بالوحدة .. نحن هنا في دمشق انجزنا التحرر ، وفي القاهرة تحقق التحرر كذلك .. وتوقفنا ، هذا التوقف هو الذي يسمح للعناصر الشيوعية بالتغلغل .. املنا هو الوحدة . الوحدة ليست تجميع القوى فحسب ، الوحدة يا فالح هي التي تنقل اكبر جزء من الامة من مرحلة التبعثر والانفعال الى مرحلة الفعل والتأثير المباشر ... الوحدة هي التي تسمح للامة بابداع شخصيتها الخاصة التي تحمل مناعتها الذاتية ضد كل محاولات التهجين والتسوبه الخارجية . وهكذا فالتحرر لا معنى له ان لم تتبعه الوحدة . بل ان ثمرات التحرر لا تلبث حتى تفسد وتتحول ضد نفسها بدون الاسراع بالوحدة .

وسمعنا عدوا سريعا في بهو الدار ، ثم تلا ذلك صوت صعود متلاحق على الدرج وعلقت عيوننا بباب الغرفة ودخل اخي خالد ، تأملنا بنظرة مستكينة ثم قال وهو يلهث :

ـ قتل الشواف !..

وضرب ابي ترجيلته بقدمه وقام قائلا لي:

ـ قلت لك ابحث عن ذلك الصوت جيدا في المذياع ..

وارتمى اخي على الاريكة شاحب الوجه ، قد امتزج الغبار بعرقه ، فاحاله الى لون رملي كامد.ثم رأيته وقد علقت عيونه باللوحة على الجدار ... مضى وقت طويل والسكون يخيم على الغرفة والشارع معا ، حتى قالت اختي:

ـ بدل ان تتأمل صورة عبد الناصر التي رسمتها بريشتك ذات يوم ، قم

بعمل ما انت واخوك وبقية الشباب يرضى عنه هذا القائد العظيم .. انظر الى ابتسامته ، انها تخلق المستقبل .. لا شيء مسدود امام هـذه الابتسامة .. وانت يا فالح ، بدل ان تفرق في ذكرياتك عن دمشق ، حاول ان تجعل بغداد تشبه دمشق لتلتقيا مرة ثانية والى الابد !

ودون وعي قلت لها :

ـ انت تحقدين عليها ..

ـ مـن ؟..

ـ العيون الرمادية .. هناك في دمشق . انت تغارين من سعاد . منـذ ان رجعت الى بغداد وانت تحاولين ان تقيمي سدا بيني وبينها .. اما اخفيت عني رسائلها طيلة شهرين حتى كفت عن مراسلتي ظنا منها انني نسيتها ؟

واجابت بلهجة ثابتة ادهشتني :

ـ ما دمت اذن قد عرفت بذلك فدعني اخبرك ببقية القصة .. انتم منذ ثورة ١٤ تموز ادركتم ان عليكم عملا كبيرا متواصلا في سبيل تدعيم الثورة بالعقيدة القومية الواعية .. ولكن اكثركم ركن الى ثقة بلهاء وهي ان الشعب معه ، وانصرفتم الى اعمال ثانوية كالجريدة وغيرها ... وبدأ كل فرد منكم يبحث عن كسله وتراخيه الخاص. واما انت فلم تجد غير التسكع على شواطيء النهر ونظم الشعر بحبيبتك . تقضي الليـل مع المشردين امثالك تحلم بالحب والعيون الرمادية ... وترجع عنـد الصباح منهوك القوى .. لقد كنت اراقبك انت وزملاءك .. تخليتم عن قيادة الشعب مباشرة الى قيادته بواسطة الكلمات المطبوعة ... تركتم قواه الحية بدون تنمية عقائدية ... ركنتم الى بعض المنافع العاجـلة، وتقنعتم بالبراءة والسذاجة ... حتى اصبحتم الان بالنسبة للفوغاء مجرمين مناوئين .

وصحت بها اخيرا :

ـ من اين لك هذه الفصاحة يا أختاه ... كنت اعتقد انك تنتظرين الزوج !.

ـ ايها الاحمق ..! في الوقت الذي يغيب فيه عقل الرجل تظـل غريزة المرأة هادية لها وبصيرة .. يجب ان تدينوا انفسكم قبل ان تلقـوا المسؤولية على غيركم .... تركتم الساحة للشيوعيين ، وها انتم فـي موضع الغرباء المنبوذين .

وتابع أبي تشتم الشر من الشارع ، وصدحت نرجيلته بقرقرتهـا الرتيبة . وطفرت بعض ابيات من قصيدتي على فمي . كنت ما ازال اعاني خدرا قديما .

في ليلة تحقيق الوحدة التقيت بسعاد بين الجموع الحاشدة التـي غطت شوارع دمشق ، وملأت جوها بالهتاف والزغردة والفرح . سرت الى جانبها طويلا اردد هتافاتها . وفي غمرة البهجة امسكت يدها . لـم اكن قد حدثتها بشيء حتى تلك اللحظة ، رغم اننا التقينا مرارا . لـم تمانع ، غير انني احسست بيدها تتيبس او تتشنج عروقها بين طيات كفي . لم تنظر الي . تابعت ترداد الاهازيج .

سهرت دمشق تلك الليلة حتى الصباح.

في ذلك الصدع بين الظلمة وشروق الشمس يسود في سقف المدينـة الضوء الرمادي .

ـ هل اوصلك الى البيت ؟!

ـ لا بأس ..

ـ سنسير من هنا، سنسير حذاء النهر قليلا ، ثم نعطف نحو سـاحة المالكي . اذكر ان بيتك في المهاجرين ، اليس كذلك ؟

ـ صحيح .. ولكن الطريق طويل الى هناك ...

ـ لن يكون طويلا !..

كنا نخلف الاصوات وراءنا . والجموع تتفرق .والمدينة بدأت بالنوم. نوع عميق مترع بتعب الفرح.. لم نتكلم . اصغينا الى اصوات الليل في الطبيعة حولنا . واخيرا ...

ـ سعاد ، هل اتكلم ؟.

ـ .....

ـ لدي شعور جديد يا سعاد لم اعتده من قبل ... كنت اعيش على عبادة الامةوالكفربواقعها الفاسد.. كان لكفري ، لكراهيتي،موضوعات لا تنضب واما عبادتي.. واما حبي.. فانه اشبه بمشاعرالمتصوفة، انه ينطلق بي الى اللامحدود . اتساءل احيانا ان كان لا بد من ان يتمثل في شيء .... في كائن ما ...

ـ الامة موضوع هذا الحب .. وامتنا بدأت توجد . ان فرح الوحدة يخلقها منذ هذه الليلة ...

ـ اوه ..! اود ان يكون لي كذلك فرحي الخاص .. فرحي الصغير .. وصمتت سعاد طويلا قبل ان تقول :

ـ اسمع يا فالح ... ستعود عما قريب الى ساحة نضالك في بغداد فلن يكون لا مرأة محل في حياتك !..

ـ انت تسيئين فهمي .. تسيئين .. ارجو ان نكف عن هذا الحديث.

ومرت تلك اللحظة سيارة اجرة فامتطيناها . وجلسنا داخلها صامتين حتى وصلنا بيتها .. ودعتها بايماءة من راسي . ولم ارها بعد ذلك .. الى يوم ثورة العراق . التقينا في المهرجان الكبير الذي اقيم احتفـالا بالثورة الرائعة . وفرح شعب دمشق ذلك اليوم فرحه بالوحدة واعظم. فلقد كان على ثقة المؤمنين بيوم الخلاص . كان شعب الوحدة يتحفـز لانتصار آخر للوحدة يعقب التحرر .

وكان الوقت كذلك وقت الصدع بين غياب الشمس وظهور الظلمة . وقت الضوء الرمادي يزحف من الارض ، ويعلو تدريجيا الى سقف المدينة، ليغيب هناك في الظلمة المتزايدة .

سرنا حذاء النهر ، وكان صيف الوادي ، وادي الربوة ، يبث شـارع بيروت رطوبة انثى شفافة .

ـ انا راحل غدا ..

ـ حسنا !.. انه الوقت المناسب ...

ـ الا تعديني بشيء ؟

ـ ما زلت تبحث عن (فرحك الخاص) يا فالح !؟

ـ سميه ماشئت . ولكنه سيظل يحافظ على اسمه الحقيقي

ـ وما هو ؟

ـ الحب .. حبي لك يا سعاد !

ـ بل قل التملك .. تملكي لي يا فالح .. انا اعرف أزمة شبابنـا الثوري .. لا تغضب .. انهم اجلوا حياتهم الى مطلق المستقبل ، يعيشون من اجل حياة لن تكون لهم . فهم فقراء اغنياء معا . ليس لهم ما يملكه الناس عادة من زواج او مال او اسرة او مركز اجتماعي . ليسوا زاهدين ولكنهم ابطال رغبة كبرى تبطل دونها هذه الرغبات الصغيرة .. بيد انه قد يحدث احيانا ان يظمأ احدهم فجأة الى ساقية صغيرة بدل النبع العظيم ، فيعب منها ، ثم يتراخى حول شطآنها الضحلة ، ثم يقيم بيـت

حياته على طحالبها .. بينما يظل الينبوع العظيم يسبح بسرابه في الافق البعيد ..

ـ عيونك ضوء رمادي !..

ـ سترجع الى العراق وهناك ستواجه الضوء الابيض الصلد ، ستواجه الشمس ، ستكون معركتك مع النار البيضاء.

ـ لك جديلة شقراء يا حبيبتي .. صغيرة من لهب الشمس الغاربة..

ـ بل من الشمس المشرقة ..

***

ـ النهر طويل ... ضجعة جسد عار في اخدود طويل يصل التعب بالمصب ...

ـ لا اعرف النوم مع الرجال ..

ـ ستلقين بك بغداد ... جئتها بامرأة بيضاء شامية ، لها عيون رمادية، وبشرة ناعمة .. وجديلة حصان ترقص وراء رأسها ..

ـ اتحبني الى هذا الحد .. الى درجة ان تجعل مني تحفة ، سفيرة الجمال الشامي في بغداد ..

ـ اواه .. بل تتلاقى الثورتان .. الفرحتان ..

ـ لا تضع يدك حول خصري .. لن اكون لك !..

ـ سأغتصبك ذات ليلة .. وانت بعيدة ، فهل سيرضيك ذلك ؟

ـ آه يافالح .. الضوء الرمادي كئيب ، بلا لون .. بلا طعم ..

ـ كئيب مثلي ، صدع بين الظلمة والشمس .. لهذا احبه ..

ـ اتسمع الى نعومة الموجات الصغيرة وهي تنزلق على اديم بعضها..

ـ انها تشبه الافاعي الصغيرة في وكر مزدحم بها ..

ـ ستكبر هذه الافاعي في دجلة بغداد ، ستزحف من عميق النهر الى الشواطىء ، ثم تنزلق الى الاحياء الهادئة ، بينما انت وامثالك يبحثون عن ضوئهم الرمادي .. سوف تستيقظون صباح احد الايام فلا تجدون الشمس . ستكون بغداد جلود الافاعي السوداء .

ـ لي اخت سمراء تحب الغضب وقراءة الكتب والعزلة عن الاصدقاء . ولي اخ رسام ، رسم صورة الرئيس عبد الناصر دون اي اصل الا خياله الخاص . ومن الغريب انه رسمه مبتسما . نوري السعيد كان يسجن من يقتني صورة للرئيس . وابي لايعمل شيئا ، انه يقرقر بنرجيلته وراء نوافذ البيت . يجب تأمل الشارع المقفر الا من ذباب الحر .. اختي ستغار منك .

ـ لن تراني ..

ـ ستعرف انني معك .. لم اعد ارى عينيك جيدا .

ـ بدا الليل .. خذني الى البيت ..

ـ سأودعك بعد لحظات ، سأرحل غدا ، سيبقى الضوء الرمادي في قلبي ..

***

قالت اختي :

ـ هل تصمت عن هذا الشعر ، لن تراها ، لن تسمع عنها خبرا بعد اليوم . لقد اعادوا السور بين بغداد ودمشق ثانية ، بينما كنت تتلهى بنظم القصائد ..

وقلت ذاهلا :

ـ آه .. اجل ! لقد كبرت الافاعي ، صعدت من اعماق الارض . زحفت بين ازقة بغداد ، تسللت الى البيوت والنفوس . شقت الصدور وراحت تمضغ القلوب .. ستموت البراءة من بغداد ، سيرتدي الناس جلود الافاعي من الان فصاعدا .

وسمعت اخي خالد يصيح بي :

ـ فالح يجب ان تصحو .. لقد انسحب الشيوعيون من الشوارع منذ بدأت اذاعة الموصل ..

ـ صحيح .. تزحلقت الافاعي على جلود بعضها .. وعادت الى حجورها في اعماق النهر .. هذا النهر بطيء الحركة .. اين هديره... اين الامطار الغزيرة . متى سيتحول الى سيل يطهر اعماقه .. من ديدان ستنقلب الى افاع ..

ـ لن يصير سيلا وانت جالس هنا تندب حظ الامة .. قلت لك الشوارع فارغة ، الشباب متربصون وراء ابواب بيوتهم . يجب ان نتنادى الى مظاهرة كبيرة ، وحين ينزل الجيش الى المدينة لمقاومة المظاهرة سينقلب الى صفوفها .

ـ نعم .. نعم .. وعندئذ تتلاشى الطواغيت ..

وصرخت اختي :

ـ قوموا اذن هيا .!

واجبت من خلال خدري :

ـ يجب ان تأتينا الاوامر من القيادة ..

فأجاب اخي هادرا :

ـ لن تأتي هذه الاوامر ابدا .. علينا ان ننطلق من تلقاء ذاتنا سأذهب الى جمع الشباب وتكتيلهم عند منافذ الشارع الكبير .. من

ـ التتمة على الصفحة ٦٥ ـ

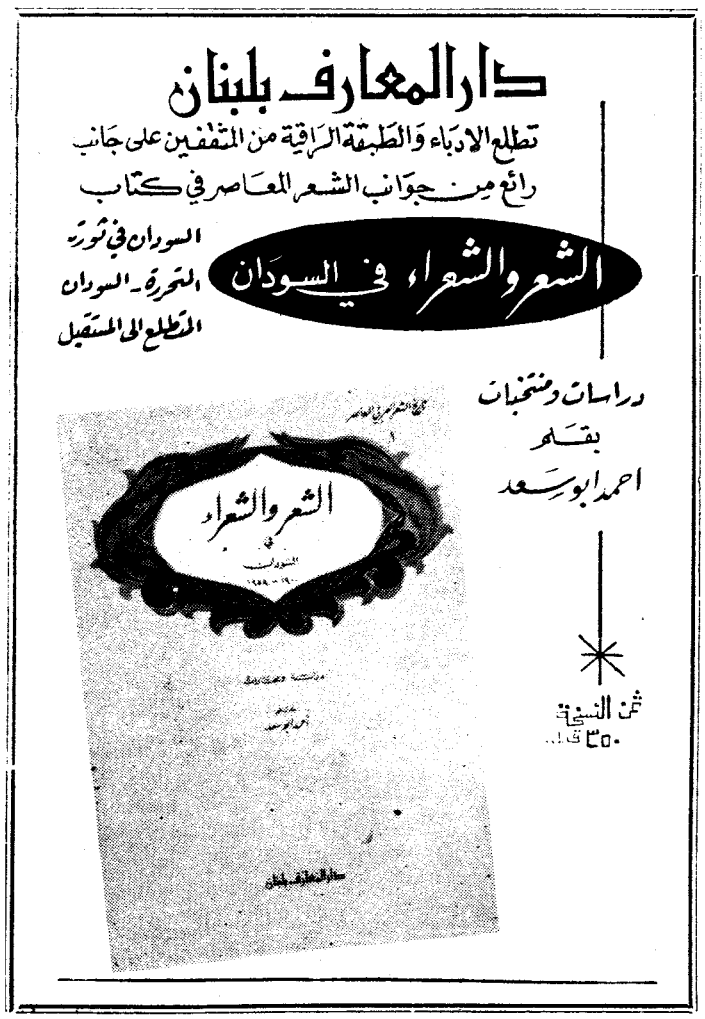

الضوء الرمادي

ـ التتمة من الصفحة ٢١ ـ

هناك سنهدر هديرنا الصاعق .. الى اللقاء ..

وانتفض اخي خارجا .

بينما صحت به :

ـ تمهل ايها الاحمق .. ربما كانت هذه المظاهرة فخا لنا كيما يبيدونا عن آخرنا .. تمهل !

ـ ليكن .. ليكن .. على كل حال نحن مقتولون ..

وحين انطلقت وراء خالد لحقت بي اختي واوقفتني عند باب الدار وقالت بحزم :

ـ فالح .. ستترك لي رشيشا هنا .. هل انت فاهم . ستترك رشيشا .. فهم لن يتورعوا عن افظع اشكال الانتقام عندما تندحرون.

وتركت لها الرشيش .. ونظرت الى براءة عينيها . خالطتها وحشية الهيبة .

***

الرجل ذو الوجه المجدور يتشمم رائحة الشر من النافذة ويقرقر بنرجيلته . وابنته الطويلة السمراء تقف حذاء النافذة وتصغي الى أصوات المعركة على منافذ حي الكرخ القريب من بيتهم .

كانت الضجة هائلة في البدء . والهتافات تقلب جو المدينة الى اصداء رهيبة . لقد اندفع الشباب من بيوتهم وأحيائهم . وتجمعوا فعلا في منافذ الطرق والازقة ، ثم هدروا دفعة واحدة . وكان الشارع الرئيسي مفتوحا أمامهم ، مقفرا . وكان الوقت هذا الشق بين غروب الشمس ومطلع الظلمة . كان وقت الضوء الرمادي . ونظر فالح الى الضوء الرمادي وهو يتصاعد من الارض ليتلاشى تدريجيا في سقف المدينة . وصاح صيحة الهجوم . غير ان احد الناس فتح نافذته وصاح من اعلى :

ـ أرجعوا الى بيوتكم أيها المجانين .. لقد قتل الشواف ، وفشلت ثورة الموصل .. ارجعوا الى بيوتكم !

الشارع أمامهم طويل مقفر ، ومن نوافذ في نهايته تجمع الطواغيت . لم يعد أبو فالح يسمع الهتافات . ولكن يحس بان المعركة محتدمة . كان يجهلها . ككل المعارك الاخرى التي تتحول الى مذابح تجز فيها الرؤوس . وتسيح انهر الدماء صامتة يتصاعد منها بخار حرارتها في البدء ، ثم لاتلبث حتى تتجمد في لون أسود ، وتلتصق بأحجار الشارع .. تلتصق الى الابد !

ونظر الرجل ذو الوجه المجدور الى نهاية الشارع ، توقف عن القرقرة . وهب واقفا . كان هناك حوالي خمسين رجلا مدججين بالاسلحة ، يتوجهون نحو بيته .

قبضت الفتاة على زناد الرشيش . وما ان اصبح الجمع تحت النافذة ، حتى انهال الرصاص عليهم . فسقط اكثرهم صرعى قبل ان يتبينوا مصدر الرمي .

ثم سكت الرشيش فجاة . نظرت الفتاة الى مخزن السلاح . ثم قالت لابيها :

ـ أبي ان قبضوا علي الان سيعتدون على عرضي وسيمثلون بجثتي .. لم يبق سوى رصاصتين .. هاك واضرب ..

لم يتردد الرجل المسن . كان على ثقة ان ولديه قد قتلا .. في المظاهرة الانتحارية منذ قليل : وان الشيوعيين لن يعفوا عن التمثيل بابنته .

كسر باب البيت . صعد الطواغيت . اندفعوا الى الغرفة الوحيدة في الاعلى وتجمدوا لحظة امام المنظر .

كان الرجل المجدور قد رمى ابنته من لحظة بالرصاصتين الاخيرتين ، ووقف فوق رأسها يتأمل وجهها دون ان يريم .

قبضت على ساعد اخي وقلت بصعوبة :

ـ اترى الان الى الضوء الرمادي ، انه كئيب رائع .. لم اره في مثل هذا البهاء .

ولم يجبني . ان الجماعة حولنا تتفرق وتتساقط . ولن يبقى بعد قليل سوانا .

لقد عادت قصيدتي القديمة تطفو على فمي ثانية ياأخي . ان اللهب يزداد في الخارج . وايقاع عنيف جامح في دمي وسمعي. صعدت أفاعي النهر كلها . أحس بنعومة جلودها حول جسدي .

ان الضوء الرمادي يغيب من سطح عيوني . كما غابت عيناها هي في الماضي . انه ينسحب ياأخي الى اعماقي . يمتزج بدمائي كمادة غريبة .

تطفر على فمي نهايات من قصيدتي القديمة . بينما اللهيب يأكل لحم جسدي من كل جانب .

لقد رجع الضوء الرمادي الى سقف المدينة ..

دمشق

مطاع صفدي